فوضى العالم ومسؤولية العلم

World Chaos : The Responsiblity of Science
by William McDougall

تلخيص وتعليق

الاستاذ وليم مكدوجال كاتب انجليزي نابه الذكر وباحث في الشؤون الاجتماعية ولي منصب استاذ علم النفس في اكبر الجامعات الانكليزية والاميركية . وله مذهبه الخاص في السيكولوجيا عامة وفي السيكولوجيا الاجتماعية خاصة فاذا تكلم أو كتب عن مسائل المجتمع ومعضلة الحضارة الاوربية فقد حق لنا ان نسمع له وان نعرف رأيه ومكانه من الصدق ، وحظه من العمق والصواب

ولقد تناولت الصحف الادبية هذا الكتاب حين ظهوره بشيء كثير من الاهتمام والعناية. وكتب عنه النقدة هناك بغير قليل من الجدل والمناقشة . لان المؤلف تناول فيه مسألة المسائل في الوقت الحاضر . وعرض لهذه الفوضى العالمية بذلك البحث اللامع فتغلغل الى لب الموضوع وجوهره ، وعرض كل ذلك بأسلوب واضح ، وحماسة بينة !

فليس شك ان العالم الآن يجتاز اعصب فترة في تاريخه . وان الحضارة الاوربية تهددها الاخطار من كل حدب وصوب . وان رجال الفكر يتوجسون شرًّا ان تكون هذه الازمة نهاية الحضارة الراهنة وارتداد العالم مئات الاعوام

فكل بحث يتناول هذه المشكلة ، وكل كتاب يعنى بهذه الفوضى ، هو بحث جدير بالنظر وكتاب يشعر العالم بانه في شديد الحاجة اليه !

فهذه الفوضى البادية في كل ميادين النشاط الانساني ، وهذا الخلل الظاهر في معظم النظم الاجتماعية ، وهذه الاخطار التي تحيق بالمدنية وتكاد تودي بالحضارة ، مما يهيب بكل كاتب وبكل باحث ان يدلي برأيه وان يقترح سبل الخلاص والنجاة

وقد رسم المؤلف صورة حالكة لحالة العالم اليوم ثم عزا هذا الخلل وتلك الفوضى التي نشهد ، والتي تهدد الحضارة بوشيك الدمار، الى طغيان العلوم الطبيعية على كل مرافق الحياة العامة ، وصور النشاط البشري ، طغياناً اصبحت معهُ هذه العلوم ووسائلها ونتائجها الآلية هي الكل في الكل . وعاد كل ما عداها صدى لها ، او نتاية لا يعتد بها ولا يحسب حسابها

وليس مكدوجال هو الباحث الوحيد الذي ينظر الى الحضارة الراهنة بعين التشاؤم والخوف ولاهو بالرجل الوحيد الذي يلاحظ مظاهر الدمار ويوادره قوية الاندفاع غير بعيدة النتائج . بل هو واحد من رهط كتاب اجلاء يشاطرونهُ الرأي ، ويشايعونهُ النظر ولا يبتسمون لدى رؤية المظاهر الكاذبة والتقدم الزائف !

غير ان الجديد الجدير بالعناية في هذا البحث ان المؤلف يعزى هذه التعرضى — في قوة وبصورة واضحة — الى تقدم العلوم الطبيعية Physical Sciences تقدماً ليس في ميدان العلوم الاجتماعية ودراسة النفسيات ما يقاربهُ أو يقرب منه . فقرر — في غير تلكؤ أو شك او استثناء — ان العلوم الطبيعية ، وما يتبعها من النتائج العملية والمكتشفات الآلية ، هي المسؤولة اولاً ومباشرة عن هذا الاختلال في النظام العالمي ، الذي ابتدأت مظاهرهُ تبدو في النظم الاجتماعية والمعاهد السياسية والازمة الاقتصادية الحاضرة . فليس شك في ان العالم يشهد اليوم ازمة اقتصادية عنيفة لعله لم يشهد مثيلها من قبل ، وان مسائل السياسة العامة قد بلغت حداً من الخلل واختلاف الرأي وتعدد المذاهب لعلها لم تبلغهُ في يوم من الأيام مثل ما هي عليهِ اليوم من القوة والعنف

فضعف نظام الأسرة ، وانتشار الجريمة ، وتفشي الرشوة وما ماثلها من مظاهر النقص والخلل الاجتماعي في الحضارة الراهنة ، ما كل ذلك الا النتائج المباشرة لتقدم البحث العلمي ، واستفحال أمر الآلة الميكانيكية ، مما اصبحت معهُ الحياة الهادئة المطمئنة متعسرة صعبة ، أو هي بالفعل وفي واقع الامر ، معدومة !

يقول المؤلف ان الحضارة الراهنة ليست وليدة العلم الحديث كما يخيل الى البعض ، وانما هي ترجع الى ما هو ابعد من العلم الحديث واكثر أيغالاً في التاريخ من « كوبيرنيكوس » Copernicus فهي ترجع الى الفلسفة الاغريقية ، والى القانون الروماني ، والى غير ذلك من المخلفات الماضية والتراث الأدبي القديم

والعالم لا يضطرب الآن ، ولا تختل نظمهُ لو انهُ لم ينسَ او يتناسى تلك الدعائم وذلك الاساس القديم . وتنتج من ذلك أن أصبح البناء اثقل من ان يحتمله الأساس الذي أهمل أمره . وفي الوقت الذي نجد فيهِ أن احد جوانب هذا البناء قد تضخم و« استكرش » نجد الجانب الآخر ما زال هزيلاً نحيلاً . واذا تصور القارىء شكل بنيان أهمل أساسهُ ، وثقل سقفهُ ، وتضخم جانبٌ من جوانبهِ كملت عنده صورة الحضارة الراهنة كما تبدو لمكدوجال ، وكملت لمخيلتهِ صورة الانهيار الذي لا بد أن يحصل !

فقد صرح الاستاذ رمزي ميور — وهو من الاحرار المجددين — في حديث له مع احدى الصحف « أن الحضارة الراهنة مهددة بالخراب ، اذا لم تتمخض الاعوام المقبلة عن

حرية واسعة للتجارة العالمية ، واذا لم تعمل الحكومات ضد هذا التيار الجنوني » !

وصرح « الدوك أوف نورثمبرلاند » — وهو الرجل المحافظ — بقوله « النا على وشك أزمة كبرى في الشؤون العالمية . وان ليس في الدلائل الحاضرة ما يشير الى التقدم المطرد ؟ وان الأمل في السلام العالمي لم يعد الا حلماً جميلاً . وكذلك الحال في شؤون الاجتماع والسياسة فقد دلت النظم الحاضرة على افلاسها وانها لم تعد صالحة للوقت الحاضر . وهذه الظاهرة التي نلمحها في التاريخ الأدبي الحديث سيستفحل أمرها الى ان تقضي على البقية الباقية من النظم القائمة . والسبب في كل ذلك ان اي حضارة انما تقوم على أساس الدين والوطنية — وقد فقدت هذه الأشياء مكانها وسلطانها في العصر الحديث » !

ويتضح من هذا ان معظم الكتاب ورجال العلم — على اختلاف مشاربهم وأحزابهم — يرون هذه الفوضى ويتوجسون شراً من دوام هذا الروح الخطر

يقول مكدوجال في تعزيز رأيه ان الانسان العصري قد اهتم بالعلوم الطبيعية ، فنالت هذه العلوم كل الحظوة عند الباحثين والعلماء ، وكل التشجيع من جانب الجمهور والرأي العام لأن فوائدها تعمية مادية ، فالآلة البخارية ، والطيارة والاتوموبيل ، ووسائل المواصلات الأخرى التي قربت المسافات وجعلت السفر من مكان الى آخر لذة ومتعة ، هي في واقع الامر النتيجة المباشرة لتقدم العلوم الطبيعية وازدهارها

والسينما والراديو ، والنور الكهربائي ، والتلغراف واشباهها من آلات الترف ، ومعدات النعيم هي الاخرى من ذخر العلوم الطبيعية وفيضها ومتاعها . فلماذا لا يقبل عليها الناس ويولونها العناية ويساعدون من يعمل في حقلها ويقوم بالتجارب والمباحث في ميدانها ، اذ جعلت لهم الحياة جنة تجري من تحتها الانهار !

فنحن نحترم العلوم الطبيعية هذا الاحترام الذي يقرب من العبادة في مظاهره ، ولا يختلف عن الايمان الديني في شيء لانها قد أذلت لنا الطبيعة ، ومكنتنا من خيراتها وجعلتنا السادة الحاكمين بامرنا ، نقول « كن فيكون » !

غير ان كل ذلك الترف ، وكل تلك الملذات ، قد ابتدأ ظلها يتقلص . واتضح — ولكن اخيراً — أن الصناعة وحدها ، وان الانتاج الفائض ، وان الآلة وسهولة المواصلات وما اليها ليست هي كل شيء في نظام العالم ليثبت العالم ، ويرفل الناس في حلل الرخاء والسلام والنعيم . لان هنالك عناصر وعوامل اجتماعية وانسانية لا يمكن ان تقوم حضارة ، او يعم رخاء ، أو تزدهر ثقافة ، او يستتب أمن ، أو يستقر نظام وتطمئن حياة ، من غير معرفتها والتوفر على درسها ، والعمل بمقتضى تلك المعرفة وذلك الدرس !

في هذا العصر الذي نرى فيه كل شيء يغري بالتبحر في العلوم الطبيعية ، نرى من عوامل

التبسيط ، وانصراف رجال البحث والذكاء عن ميدان العلوم الاجتماعية ، ما وقف معه كل بحث نزيه في حقيقة الانسان ، وعلوم المجتمع والحياة عامة

فالكنيسة مثلاً قد وقفت حجر عثرة امام اي بحث في التقاليد والمعتقدات ودرسها درساً حرًّا . ولم تسلم الجامعات ، وهي المعاهد الحرة ، من هذه العراقيل الرجعية . وحكم بذلك على علوم الاجتماع ان تبقى راكدة آسنة ، واصبح درس الكواكب والالكترونات أهم عندنا بكثير واحق بعنايتنا من درس الانسان ؛ وهو «الدرس الحق» كما قال بوب في قصيدته المعروفة

يقول مكدوجال ما معناه : « اننا نعيش في عصر بلغت فيه الفوضى الاجتماعية اشدها . ومرجع هذه الفوضى ولا شك هو العلوم الطبيعية . فما علاج ذلك ؟ ! ... العلاج من داء العلم هو زيادة العلم ! ولكن اي علم ؟ ! ... عندنا الكفاية من العلوم الطبيعية وهي التي تحمل تبعة هذا الخراب . ولنفرض بأننا ازددنا بهذه العلوم عرفاناً ، وبها بصراً وتبحراً ، واكتشفنا المدهش الرائع في ميدانها . وجاءنا اينشتين » آخر فبرهن على ان هذا الفضاء الذي نرى لا وجود له ، ولا حقيقة فيه . فهل ذلك العلم يا ترى يحل مشكلتنا الاجتماعية الحاضرة ، او يجعلنا ابصر بنظام الحكم ، واعلم بطبيعة الانسان ؟ ! »

فعالم السياسة يضطرب الآن وتتجاذبه قوى مختلفة ، وتتنازعه دوافع متباينة . ورجال السياسة يزعمون لنظمهم التي يقترحونها من الصدق والحق ما يجعلنا اشد ريبة واكثر شكاً في حقيقة اي نظام وصدق اية نظرية . وقيام النظم السياسية المختلفة من فاشية وديكتاتورية وديمقراطية وشيوعية الى آخر النظم السياسية الحاضرة هي الدلائل المادية على اننا لا نفهم شيئاً صحيحاً عن حقيقة النظام الاصلح . واننا نجهل هذا الانسان الذي نود ان نشرع له ، ونسن له القوانين ، ونفرض عليه الحقوق والواجبات جهلاً اقل ما يقال فيه انه لا يمكننا من الاضطلاع بهذه المهمة الخطرة

هل يستطيع الرجل السياسي الآن ان يطمئن الى نتائج بعينها من اسباب محدودة . وهل نحن نعرف الدوافع الانسانية واختلافها ، والظروف الخارجية وتشعبها مما يجعل نظاماً من الحكم ، أو اسلوباً من النظام ينجح في مكان وبين قبيل ، ولا يكون نصيبه مثل ذلك النجاح في مكان ثان ، وبين قبيل آخر ؟ !

وهل نحن نعرف حقيقة التباين ومداه بين الاجناس والافراد . وهل التشابه بين الاجناس البشرية اكثر ، أم ان وجوه الاختلاف اكثر وأظهر وابعد ؟ وهل اصلاح الفروق مستطاع عن طريق التربية والتثقيف ، ام ان لا اصلاح للنفوس ولا تدريب للطباع . وهل البشر يتفاوتون من حيث انتاج الحضارات والابقاء عليها ، ام ان كلهم في هذا الصدد قريب من قريب . وهل حصة التربية وانتشار سبل الصحة هي الآن كما يجب ان تكون ؟ !

وبالاختصار ما طبيعة علم الحياة ، وحقيقة « الانسان » وصحة النظم الاجتماعية ! ؟

اننا لانعلم من كل ذلك شيئاً يصح الركون اليه والاعتماد عليه . وهذا العلم — لو علمنا — هو وحده التدبير على انتشالنا من هذه الورطة التي تتردى فيها الانسانية اليوم ! »

وعلم الاقتصاد ، هل هو علم حقاً ؟ ايمكن عرفان النتائج المحتمة من المقدمات المقررة ؟ يكفي ردّاً على هذا السؤال وامثاله ان يطالع القارىء اي صحيفة عصرية تتناول الشؤون الاقتصادية فيجد من الاختلاف في الرأي ، والتبلبل في وجوه النظر ما يجيب عن سؤاله أشفى جواب !

ونحن لو كنا اعلم قليلاً بشؤون الاقتصاد والمعاملة لما وقعنا في هذه الازمة الطاحنة التي اختلفت الآراء وتعددت في أسبابها ، حتى أصبح كل شيء سبباً لها ، الا جهلنا بها !

بل ان هنالك مسائل اقتصادية أولية ، مثل الاساس الذهبي للعملة ، وقانون الطلب والعرض يختلف في شأنها هؤلاء (العلماء) الاجلاء ولا يعرفون وجه الصواب فيها

ومع كثرة احاديث الاقتصاديين هذه الايام عن « الدوافع والقوى » المجهرية ، وعن « الثقة » فالعالم ما زال ينفق ملايين الجنيهات في البحث عن الغازات السامة ومعدات الحروب ولا ينفق ربع ذلك المبلغ للتوفر على دراسة هذه « الثقة » مثلاً

وليس يبعد في ظننا ان بعضهم ينتظر من علماء الكيمياء ان يكتشفوا لنا محلولاً كيمائياً تصبح « الثقة » بعد تناوله بين الافراد والجماعات مستوفاة مزدهرة . ثم ما هي طبيعة هذه « الدوافع والقوى » النفسانية التي كثر الحديث عنها في كتابات الاقتصاديين . اننا بلا شك في حاجة الى نور يضيء ظلماتها . ولن يكون ذلك على كل حال بدراسة المريخ والبحث عن معادلة الحامض النفثيك !

والسيكولوجيا : هذا العلم الحيوي الذي لا يمكن ان تقوم علوم الحياة والمجتمع على غير اساسه . ما حقيقته ؟ . . ان هذا العلم — ونسميه علماً من باب التجوز — ما زال مرتعاً خصباً لمختلف الآراء المتنافرة ، ومتباين الاحكام والنظريات . وفي السيكولوجيا الحديثة من النظريات والفروض والمدارس الفكرية مما يخجل القارىء معه ان هذا « الشيء » الذي نسميه انساناً قد يكون الهاً ، أو قد يكون آلة . أو قد لا يكون شيئاً من الاشياء على وجه الاطلاق ! ؟

هذه هي مجمل آراء المؤلف . وقد حاولنا تصويرها بأسلوب يقرب من أسلوبه ونسبغ عليها شيئاً من مرارة تهكمه وشدة حماسته ونكون امناء في نقل آرائه بعد كل ذلك . والرأي الذي يخرج به الانسان من كتابه هذا هو ان علوم الاقتصاد والتشريع والتاريخ والنفس والسياسة وخلافها من العلوم يجب ان تكون قبلة الباحثين والنبهاء اذا رغبنا في الابقاء على حضارتنا هذه وحفظ التوازن الضروري بين معلومات الانسان . ذلك لأن هذه العلوم هي الأسس التي لا يمكن ان يقوم الرقي الآلي والصناعي الا عليها

غير اننا نلاحظ — ولو اننا نوافق المؤلف في النتائج التي توصل اليها والدعوة التي ينادي بها — ان الاستاذ مكدوجال في اعتقادنا قد فاته أن يشير الى اكثر الأسباب قوة ووضوحاً وصدقاً في تقدم العلوم الطبيعية ، وتخلف علوم الاجتماع . ويبدو لنا أن المنفعة المادية التي ذكرت ليست بأميز خواص العلوم الطبيعية ، وان كانت نتيجة من نتائجها . غير انها لم تكن الحافز الأول والمهم لدى العالم في معمله او الرياضي في مكتبه . بل ان هنالك من العلوم الطبيعية ، المزدهرة ما ليس فيها اي فوائد مادية مباشرة تنجم عنها أو يقبل عليها الجمهور لفائدتها، كابحاث اينشتين مثلاً ودراسة الفلك وطبقات الارض الخ !

وعندنا ان السبب الأول والمهم في تقدم العلوم الطبيعية انما هو سبب طبيعي لا سبيل الى تكرانه او تخطيه وهو ان العلوم الطبيعية أسهل من العلوم الاجتماعية اذ ان البحث في العلم الطبيعي يرجع الى ملكات الانسان الأولية الشاعة . وان اسلوب البحث العلمي أسهل ووسائل التثبت والفحص فيه قريبة التناول . والباحث في العلوم الطبيعية لا يحتاج الى اكثر من الذكاء العادي الى جانب الملاحظة والفحص والتجربة والمثابرة — الاشياء التي يعتمد فيها على الحواس — والعلم الطبيعي في هذا المعنى لا يعنى الا بعالم المحسوسات ولا يهتم بالقيم الغامضة والدوافع المجهولة ، والسبح وراء التأملات والتخيلات وعالمه انما هو عالم المادة والمحسوسات وادواته موجودة في « حيز الفضاء والزمن » . على خلاف علوم الاجتماع ودراسة الانسان فان حظ الحس فيها أقل وعالم القيم والفكر فيها اكثر ، ونصيب التخيل والذكاء أوسع . فنحن قد نتفق عموماً على وجود هذه الحروف والكلمات التي تكوّن هذا المقال. ثم نحلل هذه الصحيفة ومحتوياتها وعناصرها الكيمائية والطبيعية فنردّ الورق والحبر الى اصلها والحروف والرسوم الى طبعها . ولكننا قل أن نتفق على قيمة هذا المقال او نفسية كاتبه او الدوافع التي دفعت به الى تسطيره ، لأن مرد هذه الأشياء الى غير الحس والى غير المنطق الذي يسهل الاتفاق عليه بين معظم الناس

فارتقاء العلوم الطبيعية اذاً شيء طبيعي لم يتعدَّ قانون البساطة والسهولة . وليس الغريب ان ترتقي العلوم الطبيعية اكثر من علوم الاجتماع . بل الغريب ان تنعكس المسألة . والعلوم الطبيعية مهما ارتقت تكاد تكون أولية — من هذه الوجهة — اذا قيست بالدين والفلسفة وعلم النفس مثلاً

فاذا نجم عن العلوم الطبيعية بعض الفوائد النفعية فليست هذه الفوائد بواعث تقدمها والاقبال عليها . وان كانت مما يشجع على البحث فيها والمضي في درسها

ولطالما ظننت، أن العلم الطبيعي — مهما ظنن الناس بعظمته — أولي في وسائله وفهمه اذا قيس بالدين في صميمه ولبابه

معاوية نور